

السفر إلى الله

المكان: طهران

المناسبة: قرب موسم الحج

الحضور: القائمين على شؤون الحج لعام 1429هـ

الزمان: 1429/11/6 هـ. 1387/8/15 ش. 2008/11/5 م.

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله تعالى من صميم قلوبنا أن يشمل هممكم وجهودكم ببركاته، وأن تنتهي هذه المساعي التي تبذل خالصة وقربةً إلى الله تعالى للنتائج التي تطمحون إليها في قلوبكم إن شاء الله، أي تحقيق حج إسلامي حقيقي يرضي الروح المطهرة لسيدنا خاتم الأنبياء |.

فريضة الحج فرصة منحها الله تعالى لنا. إنها فرصة لشخص الإنسان المسلم، وفرصة للأمة الإسلامية الكبرى، وهي اليوم فرصة لنظام الجمهورية الإسلامية الذي يرفع راية سيادة الإسلام والشريعة الإسلامية. علينا جميعاً الانتهاز من هذه الفرصة.

فرصة الحج بالنسبة للفرد المسلم هي فرصة دخول الإنسان إلى مناخ معنوي جد رحيب وواسع. ننتزع أنفسنا من ثنایا حياتنا العادية بكل شوائبها وإشكالاتها ونتجه صوب أجواء النقاء والروح المعنوية والتقرب إلى الله والرياضة الاختيارية. منذ بداية دخولكم هذه المراسم تحرّمون على أنفسكم الأمور المباحة لكم في حياتكم اليومية الدارجة.. إنه الإحرام.. أي تحريم أمور شائعة مباحة جائزة في الحياة العادية المألوفة، والكثير منها مدعاة للغفلة، بل إن بعضها سبب في الانحطاط.

تُنتزع منا جميع أسباب التفاخر الظاهري المادي، وأولها الثياب. تُستبعد جانباً المناصب، والمراتب، والثياب الفاخرة ويرتدي الجميع لباساً واحداً.. لا تنتظروا في المرأة لأن ذلك من مظاهر الأنانية والنرجسية. لا تتعطّروا بالعطور الطيبة لأن ذلك أداة من أدوات التظاهر والبروز. لا تهربوا من الشمس أو الأمطار إلى تحت السقوف - أثناء المسير - لأن ذلك من مظاهر طلب الراحة والدعة. إذا مررتكم بمكان تفوح منه روائح كريهة فلا تمسكوا أنوفكم، وكذلك سائر أعمال الإحرام.. تحريم الأمور الباعثة على الراحة وشهوة النفس والشهوات الجنسية خلال هذه المدة، سواء كانت سبباً في التفاخر، أو سبباً في التمييز؛ كل هذه تُرفع وتزول.

بعد ذلك يأتي الدور للدخول في فضاء بيت الله والمسجد الحرام وتلك العظمة والجلال دون الابتعاد عن البساطة وعدم التجميل، والشعور بذلك بالعين، واليد، وبكل الوجود. العظمة والجلال ولكن ليس من نوع العظمة المادية وعظمة الأموال والزينة المادية، بل من نوع آخر لا يمكن حتى وصفه للناس العاديين. ومن ثم الدخول في هذا السيل الهادر الدوّار والتحرك حول مركز واحد، وبذكر الله، والدعاء، والبكاء، والخشوع، والكلام مع الله تعالى. وكذا الحال بالنسبة للسعي بين الصفا والمروة بعد ذلك، والوقوف في عرفات والمشعر، وفرائض أيام منى. هذا هو الحج.

أشار الأعضاء إلى أنني أوصيت براحة الحجاج ورعايتهم. نعم، هذا طبيعي، لكن هذه الراحة لا تعني الخمول واللذائذ. لقد ذكرت للأعضاء القائمين على الحج دوماً طوال الأعوام الماضية أن هذه الراحة تعني فراغ البال لأجل هذا الهيام والانجذاب والانقطاع إلى الله. افعلوا ما من شأنه أن يفرغ بال الناس ولا يعيشوا هموماً معينة فيستطيعوا بذلك أداء هذه الفريضة على أفضل وجه. هذه هي الغاية. وإلا، ليس المراد الراحة الحيوانية وراحة الأكل والنوم والأكل الأفضل والأكثر، كلا، هذا ليس ذوقي، كي نتوخى هذه الأمور ونجري وراءها.

ليس الحج سفرة ترفيهية إنما هو رحلة معنوية. إنه سفر إلى الله بالجسم والروح كلاهما. السفر إلى الله ليس سفراً جسمانياً بالنسبة لأهل السلوك، إنما هو سفر قلبي وروحي. وهذا السفر إلى الله هو بالنسبة لنا جميعاً نحن الناس سفر بالجسم والروح معاً، ولا فائدة من أن نأخذ الجسم إلى هناك ولا نأخذ الروح. أو أن يتحول الحج لا سمح الله بالنسبة لبعض من تتكرر لهم هذه النعمة — حيث يوفّقون للذهاب إلى الحج بشكل متكرر فيشاهدون بيت الله ويزورونه — إلى شيء يبعث على اللأبالية وعدم الاهتمام، فيعجزون عن الإحياء لأنفسهم بتلك الثورة الداخلية أو وجدانها في نفوسهم. هذا ليس بالشيء الإيجابي.

رحمة الله على المرحوم الشيخ محمد بهاري — ومن المقرر أن يقام له في هذه الأيام حسب الظاهر مراسم تكريم سنوية أو ملتقى تكريمي — الذي يقول في إحدى كتاباته أن الدعاء، والذكر، وربما الصلاة إذا تكررت من دون توجّه إلى الله فستؤدي إلى القسوة! نصلي وتكون الصلاة سبباً في قسوتنا! لماذا؟ لأن قلوبنا غير حاضرة وغير خاشعة أثناء الصلاة. إذن، هذه الصلاة إما أن تؤدي بخشوع فتكون مدعاة رقة وقرب ولطف ونقاء، أو تقام بلا خشوع فتكون حسب قوله سبباً في قسوة القلب.

كذلك الحج.. ينبغي أداء هذه الأعمال بتوجه وحضور {أياماً معدودات}(1) {معلومات}(2) مجموع أيام الحج والعمرة ليس أكثر من عدة أيام. فرصة الحج الممتدة لعدة أيام تمرينٌ وتعليم تجريبي يرى من خلاله الإنسان أن بالمستطاع العيش على هذه الشاكلة أيضاً.. يمكن العيش بلا تفاخر ولا اكتراث للذائد المادية. لا أننا نريد أن نعيش حياتنا كلها في حالة إحرام، ليس هذا المراد، ينبغي أن تصيبوا من طيبات الرزق التي أحلّها الله تعالى، إنما يجب تبديد التعلق والتعطّش واختصار الحياة في هذه الأمور — وهذا ما نعاني منه حيث نطن

---

(1) سورة البقرة، 184.

(2) سورة الحج، 28.

الحياة هذه اللذائذ والشهوات المادية والأهواء الفارغة العبثية — كي نفهم أن بالإمكان تخصيص فصل من الحياة وجزء من الأيام، وساعات من منتصف الليل لحالة النقاء والانقطاع إلى الله هذه. هذا ما تتدربون عليه وتتعلمونه هناك. يتعلم الحاج أن بالمستطاع القيام بذلك. انظروا كم هي فرصة عظيمة.

عليكم أيها العاملون في شؤون الحج أن تفعلوا ما من شأنه جعل العدد الكبير من الناس الذين يأتون للحج معكم أو المتواجدين هناك — القادمين من بلدان أخرى — يدركون هذه النقطة في الحج ويتعرفون على هذه الفرصة ويندفعون نحو اقتناص هذه الفرصة. هذه من أهم الأعمال التي يضطلع بها العاملون في شؤون الحج سواء رئيس القافلة، أو رجال الدين في الحج، أو مدراء الأقسام المختلفة الثقافية وغير الثقافية. الشعور بأن هذه فرصة توفرت الآن ولا تتوفر دوماً ليس بالشعور الذي ينتاب الجميع. كم من الناس يتمنون يوماً واحداً من أيامكم هناك، لكن الفرصة لا تتوفر لهم. الذين يشتاقون للحج في العالم كثيرون، فاغتنموا هذه الفرصة طالما توفرت لكم الآن. هذه فرصة الفرد وعلى ضوءها تتبين واجبات مسؤولي الحج والعاملين فيه. هذه الفرصة الأولى.

الفرصة الثانية هي تلك التي تنتهي للأمة الإسلامية التي تتعرض بسبب تعدد قومياتها، وأعرافها، ومناطقها في العالم، وثقافتها، وعاداتها، وأذواقها للفواصل والتباعد بشكل طبيعي. فالله تعالى لم يبعث الإسلام لعرق خاص، أو لثقافة خاصة، أو لمنطقة معينة من العالم، بل بعثه للبشرية كافة، والبشر كلهم متباينون عن بعضهم من حيث اللون، واللغة، والعادات، والأذواق، والمناخات التاريخية والجغرافية. إذن، ثمة أرضية للاختلاف في الأمة الإسلامية. ويجب أن لا يظهر هذا الاختلاف ولا يكتسب تحققاً وحالة فعلية. الحج فرصة كبيرة للأمة الإسلامية كي تلتئم بعض الفواصل الطبيعية أو ربما المصطنعة والمفروضة.

الحج فرصة للأمة الإسلامية. من بين هذه الأعداد الهائلة التي تشارك في الحج كل عام خذوا مقطعاً زمنياً من عشرة أعوام وانظروا كم مليون إنسان يشاركون في الحج من أفريقيا، وآسيا، وأوروبا، ومن كل أرجاء العالم، من نساء، ورجال، متعلمين، وغير متعلمين، وذوي أذواق ومشارب مختلفة. لو ساد نداء الاتحاد {ولا تفرقوا} (3) الإسلامي على هذه الحشود فلکم أن تتصوروا أي حدث عظيم سيقع. ستبتهت كل أسباب الاختلاف تلك. واحد سني، وآخر شيعي، ولدى الشيعة فرق مختلفة، وبين السنة فرق مختلفة، ومذاهب فقهية مختلفة، وعقائد مختلفة، وعادات شتى تؤدي للتباين على نحو طبيعي.. كل هذه تجمعها يد الحج العظوفة وتقربها وتكاتف بينها.

وأريد أن أذكر هاهنا نقطة على هامش هذه القضية. كم هو جفاء كبير أن يصطنع شخص من وسيلة الوحدة هذه أداة للشقاق والفرقة؟ هذا خطاب للجميع، وليس فقط لذلك التكفير السلفي المتعصب الذي يقف في المدينة ويسب مقدساتكم.. إنه خطاب للجميع. ليدقق مسؤولو الحج — مسؤولو القوافل ورجال الدين فيها — فلا يصنعوا من وسيلة الوحدة هذه أداة للتفرقة، ويملأوا القلوب بالأحقاد والآلام. لن أعدد الأمور التي تعتبر أدوات تفرقة. فكروا بأنفسكم وانظروا ما هي الأشياء التي تملأ قلب الشيعي بالضغينة على أخيه المسلم غير الشيعي، وتملأ قلب السني بالبغضاء على أخيه المسلم الشيعي.. انظروا ما هي هذه الأمور واستخرجوها وارموها جانباً إذ لا ينبغي جعل الحج وهو مناسبة الوئام والوحدة وتوحيد القلوب والنوايا والعزائم في العالم الإسلامي، لا ينبغي جعله على العكس من ذلك وسيلة للفصل وزرع البغضاء.

معرفة هذه القضية ومصاديقها تتطلب الكثير من الوعي والدقة. هذه أمور في منتهى الجد.

الفرصة الثالثة هي الفرصة المتاحة أمام الجمهورية الإسلامية. الجمهورية الإسلامية مظلومة. أقول لكم — وقد قلت هذا لسنوات عديدة — إن الجمهورية الإسلامية نظام تجتمع فيه كافة أركان الاقتدار المعنوي.. إنه نظام مقتدر، لكنه مقتدر مظلوم.. وهاتان الحالتان غير متناقضتين. لماذا هو مظلوم؟ لأسباب شتى منها أن أعداء الجمهورية الإسلامية ولكي لا تنتشر أفكار الجمهورية الإسلامية ومبادئها بين مجتمع المسلمين الكبير يكذبون بحق الجمهورية الإسلامية بمختلف الأشكال والصنوف.. من الأكاذيب العقيدية والفكرية إلى الأكاذيب الطائفية والسياسية والتنفيذية.. يفعلون كذا ويفعلون كذا، ويقولون هذا ويقولون ذاك، يفكرون كيت ويعملون كيت.. ثلاثين عاماً وهم يحكون الأكاذيب ضدنا. أنتم بوصفكم القائمين على شؤون الحج، والذين تفيض قلوبكم بالاعتقاد والإيمان بنظام الجمهورية الإسلامية ما هو واجبكم الأول في الحج حينما تلتقون بأخيك المسلم الذي تعرض لهذا الإعلام؟ الإيضاح. أوضحوا معارف الإسلام ومعارف النظام الإسلامي. الجمهورية الإسلامية جمهورية «إسلامية». أكثريننا نحن الشعب الإيراني شيعة لكن نظامنا نظام يشمل الشيعة والسنة. ودليل ذلك أن إخوتنا السنة في الداخل، وأكثرية عظيمة من مسلمي العالم وهم سنة دعمونا ودافعوا عنا في الثورة، وبعد انتصار الثورة، وفي الحرب المفروضة، ووقفوا لأجل الجمهورية الإسلامية وقتل بعضهم. هذه هي الجمهورية الإسلامية.

ثمة في البلدان الإسلامية سواء في أفريقيا، أو آسيا، وفي كل أنحاء العالم، وحتى في قلب البلد الذي مارس ضدها أكثر العداء — أي الولايات المتحدة الأمريكية — مسلمون ليسوا من الشيعة لكن قلوبهم طافحة بمحبة الجمهورية الإسلامية، ومحبة الإمام، ومحبة هذا الشعب الكبير ذي العزيمة والإرادة، وذلك لأن الجمهورية كانت جمهورية إسلامية. أولئك يحرقون هذا ويبدّلونه ويريدون وصم الجمهورية الإسلامية كذباً بوصمة معادة الفرق الإسلامية. اذهبوا وأوضحوا هذه الأمور. ليعلم إخوتنا المسلمون وأخواتنا المسلمات في كل العالم أن هذه الجمهورية جمهوريتهم، وليعلموا أنه جرى فيها ما يتمنى قلب كل مسلم

أن يجري ويحصل. أي مسلم في العالم لا يطمح لسيادة القرآن؟ وقد ساد القرآن هنا.. سادت الشريعة هنا.

من في العالم الإسلامي اليوم لم يدم قلبه لهيمنة الأجانب والكفار ونفوذهم في البلاد الإسلامية؟ قلوبهم دامية ولا يستطيعون قول شيء.. لا يسمحون لهم بالكلام. الجمهورية الإسلامية هي ذلك المنبر الكبير، العظيم، العالمي، والحر الذي ينادي هنا بصوت عالٍ بمكنون قلوبهم وبهتافهم المختنق في حناجرهم. ولهذا يعاديه المستكبرون. هذا هو سبب عدااء أمريكا لنا.. إننا نطلق كلام قلوب المسلمين. ليست الشعوب المسلمة مجموعة بضع حكومات فاسدة طبعاً. قلوب الشعوب المسلمة مملوءة قيحاً من نفوذ أمريكا، وتدخل أمريكا، وتكبر أمريكا، وتكبر الاستكبار الأمريكي وغير الأمريكي؛ قلوبها دامية، لكن عيونها بصيرة وأيديها قصيرة. هذا الكلام يُطلق هنا بصراحة من قبل الجميع في كافة مستويات الدولة من أعلاها إلى أدناها. هذه حقائق جد مرنة وجميلة حول الجمهورية الإسلامية، فاذكروها كي يعلمها ويستوعبها العالم الإسلامي والشعوب المسلمة. طبعاً لا يكون هذا الإيضاح مقتصرًا على عدد قليل من الخواص كالطلبة الجامعيين مثلاً ممن يطلعون في البلدان الإسلامية والجامعات على هذه الأمور بحكم اتصالاتهم وعلاقاتهم العامة الدولية المتنوعة، بل ليعلم ذلك جميع الناس. هذه هي فرص الإيضاح أمام الجمهورية الإسلامية.

طبعاً أنا لا أعتقد أننا يجب أن نصلح مظهرنا الخارجي وليكن باطننا ما يكون، كلا، اعتقد بجد أن واجبنا الأول والأمر الأول الموجه لنا هو أن نصلح أنفسنا، سواء داخل قلوبنا وبواطننا أو داخل بلادنا.

داخل بلادنا أيضاً يجب أن نصلحه نحن. شعبنا شعب مؤمن ذو عزيمة وإرادة.. شعب مستعد وصادق، ولكن ثمة هنا وهناك أفراد وتيارات ومجاميع تتسمّى بمسميات عدة كالنخب السياسية وما إلى ذلك تشوّش فضاء المجتمع وتحارب فيه النقاء والصدق، وتعرض الجماهير للضبابية الذهنية والشكوك.

هذا الشعب هو ذاته الذي حقق الانتصار لهذه الثورة العملاقة، وأسس هذا النظام المتين العظيم وحافظ عليه بكل اقتدار لمدة ثلاثين عاماً. إنه شعب من هذا الطراز بهذا الإيمان وهذه العزيمة الراسخة. هذه المكتسبات لا تتحقق مجاناً. ما لم يكن الشعب مضحياً وذو إرادة وعزيمة صلبة لا تتحقق هذه الأمور طبعاً. ونأتي وبسبب عدائنا مع زيد وعمر وهذه الحكومة وتلك الحكومة والمسؤولين التنفيذيين أو مسؤولي كذا وكذا، نعرض أساس النظام للشكوك والاستفهامات، ونرسم له صورة سوداء حالكة! الشيء الذي يمارسه بعض النخبة السياسيين للأسف.

الأجواء الإعلامية للبلاد.. والأجواء الصحفية.. وأجواء الإعلام السياسي في البلاد ليست أجواء تبعث على الارتياح أبداً. علينا استلهام الدروس من الإسلام لأعمالنا، وسلوكنا، ومواقفنا، وأن نعلم أن النظام الإسلامي، والبركات الإلهية، والفضل والرحمات الربانية تستمر وتبقى طالما كنا ملتزمين بمقيد، إذ ليس لله قرابة معنا. قلتُ مراراً إن بني إسرائيل هم الذين يقول الله تعالى عنهم كراراً في القرآن: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}(4). فضل الله بني إسرائيل على العالمين، لكنهم بسبب بطرهم لم يعرفوا قدر النعمة الإلهية وكفروها ففيل لهم {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}(5)، {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}(6).. فتحوّلوا إلى هذا الحال.

الرحمة الإلهية تنزل علينا وتشملنا حينما نراقب أنفسنا ونروّضها.. نراقب كلامنا وتصريحاتنا وأفعالنا وإعلامنا. مناخ اللأبالية في الكلام والتصريح ضد

---

(4) سورة البقرة، 47.

(5) سورة البقرة، 65.

(6) سورة البقرة، 61.

الحكومة وضد فلان وفلان لأغراض خاصة ليس بالشيء الذي يتجاوز عنه الله تعالى بسهولة.. يقول الله تعالى

{وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (7) .. نعم، بعض أنماط الظلم وبعض الممارسات تعود نتائجها وآثارها على الجميع وليس على ذلك الظالم فقط، وذلك بسبب سلوك عدد من الناس ممن يمارسون الظلم في أقوالهم وفي أعمالهم وفي أحكامهم وتقييماتهم. ينبغي الحذر من هذه الأمور.

يجب أن يكون الحج درساً لنا.. درساً للحاج الذي يذهب للحج، ولنا أيضاً نحن الذين ننظر وندعو ونتمنى أن يؤدوا إن شاء الله حجاً مقبولاً كاملاً. وفقنا الله جميعاً لأن ننتفع أقصى المنفعة من دروس الحج.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.